المحاضرة التاسعة:طبيعة العلاقات الموحدية مع الممالك والإمارات النصرانية -1-:

1- العلاقات الموحدية مع مملكة قشتالة:

تميزت العلاقات الموحدية القشتالية بالعداء طيلة الوقت، فقد كان كلا الطرفين يهدفان إلى الغزو والاستيلاء على أراضي الطرف الآخر، ومن أهم ما ذكره لنا التاريخ عن هذه الأحداث تجهيز الخليفة عبد المؤمن بن علي نفسه وجيشه وأسطوله لغزو أراضي مملكة قشتالة سنة 555ه الموافق ل 1160م[1]، وكان التحضير للغزو بالأندلس أيضا حيث أمر ببناء مدينة في جبل طارق لتكون منزلا للخليفة والعساكر حيث يقول ابن صاحب الصلاة:«... منزلا للأمير عند إجازة العساكر المنصورة ومحلا ريثما تتقدم الرايات المظفرة والأعلام المنثورة إلى بلاد الروم»[2].

وقد صنف بعض المؤرخين هذه المدينة إلى أنه عمل خلد ذكرى عبد المؤمن لحصانتها وقد سماها بمدينة الفتح، وبعد إتمام بناء المدينة بدأ عبد المؤمن الاستعداد لغزو النصارى بمملكة قشتالة حيث جمع المؤن والعلف وجمع السلاح والخيل ووزعها على الجند[3].

خرج الخليفة عبد المؤمن بجيشه من مراكش في 15 ربيع الأول سنة 558ه الموافق ل 19 فبراير 1163م، وبدأ في تجهيز جيشه لغزو النصارى بعقد مجلس حربي مع قادة أشياخ جيشه إلا أن هذا الغزو لم يتم بسبب مرض الخليفة فجأة ووفاته[4] في جمادى الثاني سنة 558ه الموافق ل 15 مايو 1163م[5].

بعد وفاة الخليفة عبد المؤمن بن علي تولى زمام الأمور ابنه الخليفة أبو يعقوب يوسف والذي أخذ يستعد لغزو النصارى سنة 564ه الموافق ل 1168م، فوزع على الجند نظاميين ومتطوعين السلاح والأعطيات وقد بلغ جيشه حوالي عشرين ألف فارس، وتأخر في العبور بسبب المرض فعبر إلى الأندلس في رمضان سنة 566ه الموافق ل 1171م ونزل في إشبيلية، وأشرف على بعض أعمال البناء بها ثم تلقى بيعة أهل شرقي الأندلس[6].

وقد أثار عليه قادة وأعيان شرقي الأندلس بغزو مدينة وبدة فأخذ الخليفة برأيهم وخرج من مدينة إشبيلية في شوال سنة 557ه الموافق ل يونيو 1172م، واستولى في طريقه على عدة

حصون بالأمان[7]، وبعد أن وصل إلى قرب المدينة حاول الخليفة الاستيلاء عليها بكل الطرق وحاصرها لمدة طويلة لكنه فشل في الاستيلاء عليها، وقد طلب النصارى التنازل على المدينة بالأمان أثناء الحصار لكن الخليفة رفض، وبعد ظروف جوية قاسية من عاصفة ساعدت النصارى على إلحاق بعض الخسائر ببعض جيش الموحدين، عاد الخليفة ليعرض على النصارى تسليم بالأمان لكن هذه المرة النصارى هم من رفضوا مما جعل الخليفة يعقد مجلسا للأشياخ وسادة الموحدين يتخذ فيه قرار الانسحاب، وفعلا كان الانسحاب وبهذا فشلت غزوة وبدة[8].

وتذكر بعض المراجع أنه أثناء انسحاب الجيش الموحدي سار خلفهم ملك قشتالة ألفونسو الثامن بقواته مع بعض حلفائه من النصارى، فأدرك ذلك الموحدون وسارعوا للإفلات منه، إلا أن بعض كتائب الموحدين أجبرت على الاشتباك معهم إلا أنه لم يحرز أي الطرفين نصرا، فعاد النصارى في اليوم التالي إلى بلادهم وواصل الموحدون سيرهم نحو إشبيلية ودخلوها في 08 ربيع الأول سنة 568ه[9].

هذا وقد أقام الخليفة أبو يعقوب يوسف مدة بإشبيلية للبناء والتعمير ثم عاد إلى مراكش، وبعد عودته انتهز ملك قشتالة الفرصة وعقد معاهدة صلح مع ملك نبرة[10] من أجل التفرغ للاستيلاء على مدينة قونقة[11] الواقعة شرقي وبدة، فحاصرها حوالي تسعة أشهر تمكن من الاستيلاء عليها رغم مناعتها وحصانتها لكن ضعف سكانها بسبب مرض الطاعون، وأهلكهم الجوع والعطش من شدة الحصار، فاستسلموا للنصارى ودخلوها وحول ملك قشتالة مسجدها إلى أسقفية[12].

وقد ترتب على سقوط مدينة قونقة امتداد حدود مملكة قشتالة ناحية شرقي الأندلس، وعلى إثر هذا السقوط أيضا تشجع ملك أرغون[13] على غزو الأندلس أما ملك قشتالة فقد واصل غزواته على الأراضي الأندلسية تمهيدا للاستيلاء على مدينتي قرطبة وإشبيلية فسار بقواته سنة 578ه الموافق ل 1182م- 1183م وهاجم مدينة قرطبة، ونزل بقواته في ظاهرها إلا أنه أدرك صعوبة الاستيلاء عليها فأقلع عنها واتجه إلى غزو مالقة وغرناطة ثم أوقع بالموحدين في حصن قرمونة فأخذ فرسانه يتجولون بها دون خوف يقتلون ويأسرون وينهبون[14].

وصار ملك قشتالة بعد ذلك إلى مدينة استجة[15]، فهاجمها وكاد يدخلها لولا بسالة واليها، ثم سار إلى رندة حيث استولى على عدة حصون، وأسر جميع سكان الحصون، لكن أهل إشبيلية فدوا بعض الأسرى، حاول الموحدون استرجاع حصن شنتفيلة[16] وهو الحصن الذي ترك به ملك قشتالة حاميته وعاد إلى بلاده ولكن الموحدون رغم الحصار المتواصل والمعارك الدائمة إلا أنهم لم يتمكنوا من استعادته إلا بعد أن خرج منه النصارى بعد عودة ملكهم إليهم وإصحابه لهم بعد أن رأى حالهم المزري من شدة الحصار والمعارك[17].

وبعد أن عاد ملك قشتالة إلى بلاده سارت بعض قوات الموحدين لغزوه، وكان ذلك في جمادى الثانية 578ه الموافق ل سبتمبر 1182م فتمكنوا في طريقهم من أسر سرية نصرانية تتألف من حوالي عشرين فارسا لكن أحدهم تمكن من الفرار وأبلغ النصارى وقد واصل الموحدون زحفهم حتى وصلوا جهات طلبيرة [18]، لكن النصارى تعقبوهم ونشبت معركة بين الطرفين في مكان يبعد عن طبرية بحوالي ثمانية أميال، وانتصر الموحدون وغنموا وعادوا إلى إشبيلة منتصرين غانمين كثيرة مما شرح صدر الخليفة لهم[19].

توقف الصراع أو الغزو المتبادل بين الطرفين قرابة خمس سنوات وذلك لانشغال ملك قشتالة بأمور بلاده، وانشغال يعقوب المنصور أيضا بأمور الدولة السياسية وغيرها من الجوانب.

إلا أنه مع بداية سنة 585ه الموافق ل 1189م قامت مملكة قشتالة بعدة حملات مكثفة ومتواصلة على بلاد الأندلس فقد كانت الحملة الأولى والثانية بقيادة مطران طليطلة وقادة فرسان قلعة رياح، أما الثالثة فقد كانت بقيادة ملك قشتالة نفسه وتمكنوا في غزواتهم هذه من الوصول إلى أحواز قرطبة وبعض المناطق القريبة من اشبيلية، واستولوا على بعض الحصون وهزموا الحاميات الموحدية ونهبوا وقتلوا واسبوا[20].

الأمر الذي دفع إلى تجهيز جيوشه والعبور إلى الأندلس في محرم 586ه الموافق ل 1190م، وسار نحو مدينة قرطبة، مما بعث الخوف عند ملك قشتالة فبعث بسفراته إلى الخليفة الموحدي يعرض عليه معاهدة صلح، واستجاب الخليفة الموحدي لطلب ملك قشتالة فعقد معه معاهدة صلح مدتها خمس سنوات[21].

بعد ذلك قام الخليفة المنصور بعدة أعمال كاسترداد مدينة شلب من البرتغاليين، ثم عاد إلى مراكش أواخر 587ه الموافق ل 1191م، عودة الخليفة إلى بلاد المغرب دفعت بملك قشتالة

إلى نقض معاهدة الصلح مع الخليفة الموحدي، وقام بشن حملات على بلاد الأندلس في نفس الوقت كان ملك قشتالة قد بعث سفراءه لتجديد معاهدة الصلح، وهذا هو المنوال الذي كان يسير عليه ملك قشتالة، ببعث سفراءه لتجديد معاهدة الصلح وفي نفس الوقت يشن هجمات على الأراضي الأندلسية[22].

هذا ويذكر أن ملك قشتالة وصل في إحدى حملاته على الأراضي الأندلسية بلغ الجزيرة الخضراء، وبعث سفيرا إلى الخليفة الموحدي يعقوب المنصور، يتوعده ويطالبه بالتنازل على بعض الحصون الأندلسية المتاخمة لمملكته، مما دفع بالخليفة الموحدي يعقوب المنصور إلى العبور نحو الأندلس 591ه الموافق ل: يونيو(جوان) 1195م بجيش يتألف من مختلف قبائل بلاد المغرب المصامدة وزناتة وغمارة والعرب والأغزار وحتى المتطوعين والعبيد، وقد استراح الخليفة بجيشه في طريق الجزيرة الخضراء ثم اشبيلية حيث مكث فيها أسبوعين ثم رحل عنها باتجاه قلعة رياح حيث عسكر بجيشه على بعد مرحلتين[23].

وكان ملك قشتالة فور سماعه بوصول جيش الموحدين إلى الأندلس، قد بدأ في جمع جيشه هو الآخر، فيذكر ذلك صاحب المعجب فيقول:« ... وقد تواترت عليه،... بجواز المنصور إليه وقدومه لقتاله في أعز البلاد عليه، ألفونسو الثامن ... بجيوشه وجموعه ينتظره[24] ...».

هذا بعد أن عسكر الطرفين كل في جهته ومنطقته التي اختارها بدأ كل طرف بالمراقبة والتجسس على الطرف الآخر مما أدى بالموحدين إلى التمكن من إحدى سرايا النصارى المراقبين، الشيء الذي دفع بالخليفة إلى استشارة من حوله من قادة الجند في كيفية خوض هذه الحرب مع النصارى[25].

هذا وبعد أن استشار الخليفة قادة جيشه وأشياخ الموحدين عمل بمشورة أهل الأندلس الذين مثلهم أبي عبد الله بن صناديد[26]، والذي أشار على الخليفة بحكم خبرته في معرفة حروب النصارى وخدعهم بتقسيم الجيش إلى قسمين، قسم يضع مختلف الحشود والجنود من العرب وقبائل المغرب المتطوعة وجند الأندلسيين، يقودهم أحد كبار القادة من مشايخ الموحدين تكون حاملا لراية الخلافة فيعتقد النصارى أنه الخليفة، وأما القسم الثاني فيكون به جيش الموحدين والعبيد والحشم بقيادة الخليفة نفسه، لا يدخل المعركة في البداية، وإنماكان على استعداد في

مكان قريب من المعركة فإن بدا القسم الأول أنه بحاجة إلى القسم الثاني في المعركة تقدم الخليفة نحو الميدان بمن وعه من الجند[27].

وقد عمل الخليفة بنصيحة ابن صنديد، فسار الموحدون حتى أشرفوا على معسكر النصارى في سفح التل في البسيط الممتد أمام حصن الأرك[28]، ثم قام بعض أشياخ الموحدين بإلقاء بعض

الكلمات على الجيش من أجل إنعاش النفوس وتثبيت العزائم والحث على الصبر وتنبيه الضمائر[29].

وقد نشبت المعركة بين الطرفين في ضحى يوم الأربعاء 9 شعبان 591ه الموافق ل: 19 يوليو(جويلية)[30] 1195م، حيث قام الفرسان النصارى بثلاث هجمات متتالية لاختراق صفوف الموحدين لكنهم عجزوا عن ذلك رغم كثرة عددهم، ثم أعادوا تنظيم صفوفهم وقرروا الهجوم على قلب الجيش لاعتقادهم أن الخليفة هو حامل راية الخلافة في وسط القلب[31].

وفي الهجوم الثالث نحو قلب الجيش للنيل من الخليفة حسب اعتقادهم، تمكنوا فعلا من دخول صفوف الجيش الموحدي، واستشهد حامل راية الموحدين بدل الخليفة يعقوب المنصور الشيخ أبو يحيى[32]، ومعه بعض أفراد قبيلة هنتاتة والمتطوعين ثم تقدم جناحي الجيش من العرب والأغزار والأندلسيين حيث أحاطوا بالنصارى، فتمكنوا من الأغلبية والباقي لاذوا بالفرار نحو محلتهم[33].

لحق بعض جند الجيش الموحدي بالنصارى، وتقدم نحو ساحة المعركة الخليفة الموحدي وقارعوا الطبول ورفعوا الرايات فحاصر الموحدون حصن الأرك بعد تمكنهم من بعض النصارى وفرار بعضهم، ثم اقتحموا الحصن عنوة وأضرموا النيران بأبوابه لاعتقادهم أن ملك قشتالة بداخله، لكنه كان قد تمكن من الفرار من الباب الخلفي للحصن[34].

هذا وتختلف الروايات حول كيف دارت رحى معركة الأرك، فهناك تذكر أن ملك قشتالة نفسه قاد هجوم جيشه نحو الجيش الموحدي من متطوعة وأخلاط من البربر، وكاد يتمكن من إلحاق الهزيمة بهم، فبلغ ذلك الخليفة المنصور، فتقدم بنفسه نحو الجند يحثهم على الصبر

.

والهزيمة والثبات، فأثر ذلك في جنده واستمروا في القتال طول النهار حتى تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالنصارى، بينما ملك قشتالة تمكن من الفرار مع عشرين فارا وعندما خيم الظلام اتجه إلى طليطلة، واحتمى بقية جيشه بحصن الأرك[35].

أما يوسف أشباخ فهو يذكر رواية أخرى ويستند في روايته إلى الرواية النصرانية، فيذكر لنا أن الاضطراب والفوضى حل بمعسكر النصارى حيث تقدم باتجاههم جيش الموحدين، مما أدى بالنصارى إلى الاشتباك معهم دون نظام، فدام القتال بين الطرفين إلى غاية منتصف النهار وقد بدا جيش الانهزام على النصارى مما جعل ملك قشتالة يترك سفح التل ويدخل المعركة مع بقية الجند الذين كانوا معه، وبعد أن رؤوا صلابة الموحدين فأمره جنده بالانسحاب خوفا على حياته لكنه رفض إلا أنهم أخرجوه بالقوة من ميدان المعركة وعادوا به إلى طليطلة[36].

وهناك عدة روايات لمعركة الأرك في عدة مصادر تاريخية، فمن بعض المصادر والتي اختصرت ذكر أحداث المعركة ابن خلدون حيث يقول:«... ثم ارتحل للقاء العدو ونزل بالأرك من نواحي بطليوس، وزحف إليه العدو من النصارى وأمراؤهم يومئذ... وكان اللقاء... سنة إحدى وتسعين، وأبو محمد بن أبي حفص وأخوه أبو يحيى على العساكر،... فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى*** منهم ثلاثين ألفا بالسيف واعتصم قتلهم بحصن الأرك وكانوا خمسة آلاف من زعمائهم فاستنزلهم المنصور على حكمه وفودي بهم عدادهم[37] من المسلمين».

أما صاحب المعجب فيروي لنا عن المعركة مايلي:«... ودفع القائد ابن صناديد بجيوش الأندلس وحشودها، وزحفت معه قبائل زناتة والمصامدة وغمارة وسائر البربر إلى الربوة التي فيها ألفونسو الثامن... يقاتلون فيها من جيش الروم، وكان ألفونسو... مع جيوش الروم وجميع عساكره وأجناده فيما يزيد على ثلاثمائة ألف فارس وراجل، فتعلق المسلمون بالربوة، وأخذوا في قتال من بها واشتد القتال، وعظمت الأهوال، وكثر القتل*** الذين دفعوا في الحملة الأولى، وكانوا نحو عشرة آلاف زعيم، انتخبهم... ألفونسو... فلما اشتد القتال على الكفار وأيقنوا بالفناء... ولولا الأدبار واخذوا في الفرار إلى الربوة التي فيها ألفونسو وليعتصموا بها، فوجدوا عساكر المسلمين قد حالوا بينهم وبينها، فرحبوا على أعقابهم... فرحبت عليهم العرب والمطوعة وهنتاتة والأغزار والرماة فطحنوهم طحنا... وأسرعت خيل من العرب إلى أمير المؤمنين... وقالوا له قد هزم الله تعالى العدو، فضربت الطبول، ونشرت الرايات، وارتفعت الأصوات بالشهادة[38].

هذا ومهما اختلفت المصادر في رواية أحداث المعركة إلا ان معظمها تتفق في مكان وزمان المعركة، كما أننا لا نجد خلافا في الرأي حول إطلاق الخليفة الموحدي لسراح أسرى

النصارى وان فعله هذا اخذ في قلوب المسلمين جميعا ففي هذا الصدر يقول صاحب المعجب:« واخذ في حصن الأرك من زعماء الروم أربعة وعشرون ألف فارس أسارا، فامتن عليهم أمير المؤمنين وأطلقهم بعدما ملكهم ليكون له بذلك الامتنان ويد عليا عليهم، فعز فعله ذلك على جميع الموحدين وعلى كافة المسلمين، وحسبت له تلك القلعة سقطة من سقطات الملوك[39]...».

أما الناصري فيقول:« ان عدد اسارى الأرك كانوا أربعة وعشرين ألفا... فمن عليهم المنصور وأطلقهم، فعز ذلك على جميع الموحدين وسائر المسلمين، وعدت للمنصور سقطة من سقطات الملوك[40]».

ويذكر هذا أيضا ابن أبي دينار القيرواني فيقول:«... واخذوا منه ما لا يعلم قدره إلا الله من الاسارى أربعة وعشرين ألفا، فمن عليهم أمير المؤمنين يعقوب المنصور فأطلقهم[41]».

ويتحدث عن هذا أيضا الحميري فيقول:«... وحصر المسلمون حصن الأرك، وكانوا خمسة ألاف، فصالحوا بقدرهم من اسارى المسلمين[42]».

هذا وبعد انتهاء القتال استولى الخليفة يعقوب الموحدي على بعض القلاع القريبة من ميدان المعركة، منها قلعة رياح، المنيعة، بعدكانت تحت سيطرة النصارى حول نصف قرن[43]، أما ملك قشتالة فقد عاد إلى مملكته يجر أذيال الهزيمة التي نشرت الرعب والفزع في كامل الممالك النصرانية[44] فمنها من استعدت لدفعالجزية للموحدين كمملكة نبرة، ومنها من بدأت في اتخاذ الحذر منهم كمملكتي ليون والبرتغال، هذه الممالك التي ارتعبت من الموحدين فكرت في نفس الوقت في غزو مملكة قشتالة لاسترداد ما تم أخذه منها من أراضي قبل معركة الأرك، لأنه في هذه الأثناء كانت مملكة قشتالة تعاني الضعف اثر الهزيمة التي ألحقها بها الموحدون[45].

محاولة ممالك النصارى غزو قشتالة دفع بملكها إلى عقد الصلح مع الموحدين، حتى يتفرغ إلى حرب جيرانه من النصارى، لكن الخليفة الموحدي رفض عقد الصلح مع ملك قشتالة، وعزم على غزو بلاد الجوف أو منطقة الاسترامادورة[46]، لاسترداد حصونها وقواعدها التي استولى عليها النصارى، فخرج الخليفة الموحدي يوم الاثنين منتصف رجب 592ه الموافق ل: أفريل 1196م[47]، فتمكن من غزو حصن منتجانش[48] الذي تنازل عليه النصارى مقابل

الأمان، ثم عبر الموحدون نهر تاجة واستولوا على بعض الحصون والمدن، ثم اشتركوا مع ملك ليون في غزو قشتالة، ثم هاجم الموحدون مدينة طليرة، ثم حاصروا مدينة طليطلة حوالي أسبوع لكن لم يدخلوها ولم يخرج إليهم ملك قشتالة فاتجهوا جنوبا، فساروا إلى جيان وقرطبة واستجة وقرمونة، وعادوا بعد ثلاثة أشهر إلى اشبيلية[49].

وفي جمادى الثاني 593ه/ أفريل 1197م قام الخليفة الموحدي بشن غزوات أخرى صد مملكة قشتالة، حيث سار بجيوشه شمالا حيث دخل قرطبة فرتب بها جيشه ثم سار نحو طليرة لغزوها فاقبل عليه سفراء مملكة قشتالة يعرون عليه الصلح لنكه رفض وواصل سيره حتى طليطلة حيث بلغه اجتماع ملكي قشتالة وارغونة بحصن مجريط، فسار إليها لكنه لم يلتقي سوى بأحد قادة النصارى وبعض قواته وقد أحسن الدفاع عن الحصن، الشيء الذي دفع الخليفة إلى السير إلى وادي الحجارة حيث خسر بعض قواته دون الاستيلاء على شيء ثم سار نحو رندة وقونقة ثم إقليش حتى عاد إلى قرطبة في رمضان 593ه الموافق أوت (أغسطس) 1197م دون الاستيلاء على أي مدينة[50].

بعد ذلك عقد الخليفة الموحدي الصلح مع ملك قشتالة لمدة خمس سنوات وذلك لانشغاله بأمور بلاد المغرب ونشوء بعض الحركات المناوئة[51] لحكمه ببلاد المغرب فاثر ان يعقد الصلح مع النصارى، ويتفرغ للقضاء على هذه الحركات المناوئة[52].

ومما سبق ذكر يمكن القول ان العلاقات الموحدية القشتالية كانت طوال الوقت عدائية تتخللها فترات الصلح، من اجل التفرغ لمصالح البلاد ودرء خطر أخر وليس من اجل بناء علاقات ودية دائمة.